Al HIKMAH JOURNAL, APRIL 2019,
VOL 2, ISSUE 2
EISSN: 2637-0581
www.alhikmah.my

أصول النحو العربي: إشكالات النشأة والتطور

الدكتور علي محمد علي القحطاني[1] والأستاذ المشارك الدكتور عبدالوهاب زكريا[2]
والأستاذ المشارك الدكتور بدري نجيب زبير[3]

عند الحديث عن نشأة أصول النحو وتطوره لابد أن نُعرج على نشأة النحو كعلم من علوم العربية لارتباط نشأة أصول النحو بالنحو نفسه من حيث نشأته وواضعه.

من الحقائق الثابتة أن النحو لم يكن معروفا عند العرب قبل الإسلام، لأن العرب لم يكونوا بحاجة إليه لسلامة فطرتهم وجودة قرائحهم، خلافا لما ذهب إليه ابن فارس حيث ذكر أن النحو والعروض كانا معروفين عند العرب قبل الإسلام كعلمين ثم اندثرا ومضت عليهما الأيام ثم جددهما الإمامان يقصد أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي.[4]

وهذا الكلام يحتاج إلى سند تاريخي من ابن فارس،لأن ما تدل عليه الشواهد ومراحل تطور النحو العربي أن نشأة النحو العربي بدأت بعد مجيء الإسلام في الصدر الأول منه، لأن علم النحو قانون تتطلبه الحوادث وتقتضيه الحاجات، ولم يكن قبل الإسلام ما يدعو إلى وضع النحو، لأن العرب يتحدثون بسليقتهم التي جبلوا عليها.[5]

---

[1] باحث أكاديمي، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، dr.alialmosa@gmail.com

[2] الأستاذ المشارك الدكتور بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، abd.wahab@iium.edu.my

[3] الأستاذ المشارك الدكتور بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، badri@iium.edu.my

[4] احمد بن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة**، تحقيق: أحمد صقر، (دمشق: عيسى الحلبي، د.ط، د.ت)، ص13.

[5] عبد الله الخثران، **مراحل تطور الدرس النحوي**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1993/1413م)، ص15.

Al HIKMAH JOURNAL, APRIL 2019,
VOL 2, ISSUE 2
EISSN: 2637-0581
www.alhikmah.my

وقد وجد في العصر الجاهلي من تعلم القراءة والكتابة ولاسيما في الحواضر كالحيرة واليمن ومكة والمدينة والطائف مثل زيد العبادي وابنه عدي الشاعر فكان منهم من يكتب بالعربية والفارسية ويعملون في بلاط كسرى.[1]

وعند الحديث عن نشأة النحو فلابد من الإشارة إلى مكان نشوء علم النحو في بادئ الأمر إذ نشأ في البصرة حيث تعد الحاضرة الأولى في العراق وقد اشتهر اهل العراق بالاهتمام بعلوم العربية يقول محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة 231هـ : "وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العربية عناية"[2].

وقد ذهب كثير من الباحثين إلى آراء متعددة في واضع النحو الأول وزمنه ومدى تأثره بغيره، حيث ذهب المستشرق الألماني بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي إلي إنكار أن يكون أبو الأسود الدؤلي هو من وضع النحو وعذ ذلك من قبيل الأساطير، بل أنكر ما نسب إلى تلامذته أيضا، ويرى أن البداية الحقيقية لتاريخ النحو العربي من طبقة أساتذة الخليل وسيبويه.[3]

وذهب أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام إلى ما ذهب إليه المستشرقين من التشكيك في واضع النحو الأول حيث استقر الرأي عنده بأن عمل أبي الأسود الدؤلي إنما هو مقتصر على نقط المصحف، وأن البداية الحقيقية لوضع النحو في عصر ابن إسحاق الحضرمي.[4]

وذهب إبراهيم مصطفى إلى أن أبا الأسود الدؤلي لم يضع قاعدة نحوية واحدة، وإنما وضع النقط التي تضبط أواخر الكلمات بحسب ما تقتضيه السليقة العربية، وأن اقدم كتاب في النحو كتاب سيبويه حيث لم يسند إلى أبي الأسود الدؤلي أي قاعدة نحوية [5]، وذهب إلى ماذهب إليه أحمد أمين بأن ابن إسحاق هو أول من وضع النحو.

---

[1] المرجع السابق، ص16.

[2] محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، (القاهرة: دار الكتب العلمية، ط1، 2001م)، ج1، ص12.

[3] المستشرق الألماني بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، (مصر: دار المعارف، د.ط، د.ت)، ج2، ص123-128.

[4] أحمد امين، **ضحى الإسلام**، (د.م: د.ن، ط7، 1371هـ/ 1952م)، ج2، ص285.

[5] مراحل تطور الدرس النحوي، مصدر سابق، ص44 - 45.

Al HIKMAH JOURNAL, APRIL 2019,
VOL 2, ISSUE 2
EISSN: 2637-0581
www.alhikmah.my

وفي الحقيقة أن هذه الأقوال مردودة على أصحابها فقد أثبتت جميع المصادر التاريخية أن أبا الأسود الدؤلي هو واضع النحو لما عرف عنه من كثرة البحث والتنقيب عن الكتب ومعرفة أخبار المتقدمين كما إنه ثقة عند المحدثين، ولما يتمتع به من صفات عظيمة تؤهله أن يكون هو واضع النحو العربي بلا منافس، فقد كان معدودا في التابعين والفقهاء والمحدثين والشعراء والأشراف والفرسان والأمراء والنحويين.[1]

كما أن هناك أسباب رئيسة لوضع النحو نذكر منها:

1 . شيوع اللحن: إذ يعد اللحن من الأسباب الأولى لوضع النحو وتدوين اللغة وجمعها واستنباط القواعد وتصنيفها. وقد ظهر اللحن مبكرا ولكنه خفيفا ونادرا فقد روي أن رجلا لحن في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل"[2].

وقد شاع اللحن في عصر بني أمية بين الناس حتى أصبح يُعد الرجل الذيلا يلحن، ولهذا يعتبر شيوع اللحن من الأسباب الرئيسة الباعثة لوضع علم النحو.

2 . المحافظة على كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: حيث كثر اللحن والزلل في اللسان العربي نظرا لكثرة اختلاط العربي بغيره من الشعوب الأخرى في عصر صدر الإسلام، مما جعل الحاجة ملحة إلى وضع علم النحو للحفاظ على كتاب الله جل وعلا من اللحن والدس والزلل، وقد نبه على ذلك الزجاجي بقوله: "فإن قيل فما الفائدة في تعلم النحو؟ .... فالجواب في ذلك يقال له: الفائدة فيه للوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مُبَدَّل ولا مُغَيَّر، وتقويم كتاب الله عز وجل الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد،

---

[1] عبد القادر بن عمر البغدادي، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، (د.م: مكتبة الخانجي، ط4، 1997م)، ج1، ص136.

[2] علي بن تقي الدين الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، طبعه وفسر غريبه الشيخ بكري حياتي، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوت السقا، (حلب: مكتبة التراث الإسلامي، ط1، 1397هـ/1977م)، ج1، ص115.

ومعرفة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، وإقامة معانيها على الحقيقة، لأنه لا يفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقوقها من الاعراب"[1].

وقد حصر بعض الباحثين المحدثين السبب وراء وضع النحو هو المحافظة على كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأن العلوم الإسلامية كلها نشأت لخدمة القرآن الكريم، فلو كان المقصود هو محاربة اللحن لاقتصر علم النحو على وضع ضوابط الصحة والخطأ في كلام العرب، اما الفهم فإنه يقصد به البحث لمعرفة ما يؤديه النص القرآني من على وجه الخصوص باعتباره أعلى ما في العربية من بيان.[2]

3 ـ الحاجة لفهم اللغة العربية: حيث نشأ جيل جديد في الإسلام وهم الموالي، ولم تكن العربية لغة السليقة بالنسبة لهم، فكانت الحاجة ماسة لوضع قواعد النحو ليفهم هؤلاء ما يصعب عليهم في لغتهم التي اكتسبوها من معايشتهم للعرب.

4 ـ الباعث السياسي: حيث أدت الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام بين البلدان إلى رغبة الولاة والعلماء في وضع النحو ليتعلم غير العرب العربية وتتوسع رقعة البلدان العربية.

5 ـ فساد الملكة اللغوية بالاختلاط: حيث أدى اختلاط العرب بغيرهم إلى فساد سليقتهم اللغوية حيث رويَ أن أبا الأسود الدؤلي جاء إلي زياد ابن ابيه الذي كان واليا على البصرة والكوفة من قبل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فقال: "إني رأيت العرب قد خالطوا هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم"[3].

---

[1] أبي القاسم الزجاجي، **الإيضاح في علل النحو**، تحقيق: مازن مبارك، (د.م: دار النفائس، د.ط، د.ت)، ص95.

[2] عبده الراجحي، **النحو العربي والدرس الحديث**، (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، د.ت)، ص79.

[3] أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.م: دار المعارف، ط2، د.ت)، ص22.

وقد اختلف كثير من الباحثين في تقسيم مراحل تطور علم النحو فمنهم من قسمه إلى أربع مراحل[1]، ومنهم إلى أقل من ذلك أو أكثر، وعندي أن النحو العربي قد مر بثلاث مراحل منذ نشوئه وحتى اكتماله وتطوره وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة الوضع والتأسيس: وهذه المرحلة رأس زعامتها هو أبو الأسود الدؤلي حيث تكاد تتفق جميع المصادر التاريخية على أنه واضع النحو، حيث يقول محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة 232هـ: "وكان أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبا الأسود الدؤلي حين اضطرب كلام العرب ..."[2].

فهناك شبه إجماع من المؤرخين على أن واضع النحو أبو الأسود الدؤلي وجميع الأخبار التي ذكرت غير أبي الأسود الدؤلي في هذه المرحلة من الزمن جميعهم يتصلون بأبي الأسود الدؤلي في الزمان والمكان مثل أبو حرب ابنه، ويحيى بن يعمر، وعنبسة الفيل وميمون الأقرن ونصر بن عاصم وهؤلاء تلامذته.[3]

وعمل رجال هذه المرحلة على اختراع الحركات الإعرابية من خلال النقط أو مايسمى بنقط الإعراب وذلك لحفظ القرآن الكريم من اللحن والزلل.

المرحلة الثانية: بناء الأصول والقواعد: حيث ظهر عند رجال هذه المرحلة بناء أصول النحو من سماع وقياس وعلل، حيث تذكر المصادر أن عبد الله بن أبي إسحاق هو "أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل"[4].

---

[1] عبد الله حمد الخثران، **مراحل تطور الدرس النحوي**، مصدر سابق، ص67.

[2] محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، مصدر سابق، ج1، ص12.

[3] أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، مصدر سابق، ص11.

[4] أبي سعيد السيرافي، **أخبار النحويين البصريين**، تحقيق د محمد إبراهيم البنا (د.م: دار الاعتصام، ط1، 1405هـ)، ص43.

والمقصود بالقياس في هذه المرحلة هو وضع القاعدة النحوية أو الضبط النحوي. فقد فطن إلى أن العربية تحكمها أصول وقواعد يبني عليها الكلام.

وهذه المرحلة هي من أهم مراحل النحو حيث دخل النحو مرحلة جديدة في بناء القواعد النحوية والأحكام وقياس كلام العرب بعضه على بعض.

وتبدأ هذه المرحلة بعصر عبد الله بن أبي أسحاق الحضرمي وتنتهي بالخيل بن أحمد الفراهيدي.

المرحلة الثالثة: التأليف والترجيح والاجتهاد. وتبدأ بعصر سيبويه مرورا بعلماء النحو واللغة في البصرة والكوفة وبغداد، وحتى زمن الاختلاف والترجيح في القرن الرابع الهجري.

وبعد هذا العرض عن نشأة النحو نستطيع أن نقول إن الصورة واضحة تماما عن البداية الحقيقية للنحو العربي وضعا وتأسيسا وتأليفا، وننتقل إلى أصول النحو .

لقد توصل كثيرٍ من النحويين القدامى إلى عدد من الضوابط والقواعد والمصطلحات في كتبهم التي ألفوها في بداية التأليف النحوي، واتفاقهم على عُرْفٍ محدد التزموا به سواء فيما يتَّصِل بمن يأخذون عنه المادة اللغوية، أو طريقة استخراج تلك القوانين إلاَّ أنَّ التجرد للبحث في المنهج اللغوي وأصوله لم يبدأ التفكير فيه إلا متأخرا؛ وذلك لأن النحويين القدامى كانوا معنيين بالتطبيق أكثر من عنايتهم بالتنظير وهو ما تدعو إليه الحاجة أولا.[1]

وأول حديث عن الأصول النحوية جاء مبكراً عند النحويين الأوائل. يقول محمد بن سلاَّم الجُمَحِيّ: "أول من أسَّس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، وأوضح قياسها أبو الأسود الدؤلي"[2].

---

1 طاهر سليمان حمودة، **جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي**، (بيروت: لمكتب الاسلامى، ط1، 1989م)، ص339.

2 محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، مصدر سابق، ج1، ص12.

ويقول ابن سَلاَّم عن عبد الله بن إسحاق الحضرمي[1] الذي ينسب إليه العمل بالقياس وتطبيقاته: "إنَّه أوَّل من بعج النحو، ومد القياس والعلل"[2].

وقيل عنه أيضاً: "إنه أشَدُّ تجريداً للقياس من عيسى بن عمر الثقفي[3] وأبي عمرو بن العلاء[4]"[5]، وكان يقال: "عبد الله أعلمُ أهل البصرة وأعقلهم فَفَرَّعَ النحو وقاسه"[6].

ولهذا يُعَدُّ السماع والقياس والتعليل أول أصلين ظهرتا من أصول النحو عند النحاة القدامى من خلال استنباطهم لكلام العرب والقياس عليه، حيث اعتمد النحاة الأوائل على هذين الأصلين من بين أصول النحو.

أما الإجماع فقد تأخر قليلا عن هذين الأصلين حتى بدأ التدوين في كتب النحو الرئيسة حيث كتب النحاة المتأخرين إجماع النحاة الأوائل على مسألة من مسائل النحو أو اللغة، ومن المتأخرين من وافق هذا الإجماع واتفق مع المتقدمين، ومنهم من خالف الإجماع في مسألة من المسائل وتفرد برأيه مقدما الحجج والبراهين.

---

1 عبد الله بن زيد بن الحارث الحضرمي البصري أبو بحر بن أبي إسحاق، مشهور بكنية والده، ينسب إليه وضع النحو بعد أبي الأسود الدؤلي، أحد الأئمة القرَّاء، أخذ القرآن والنحو عن يحي بن يعمر ونصر بن عاصم تلامذة أبي الأسود الدؤلي، توفي سنة 117هـ.، عبد الواحد بن علي اللغويّ الحلبيّ، **مراتب النحويين**، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ط1، د.ت)، ص31.

2 محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، مصدر سابق، ج1، ص14.

3 أبو سليمان عيسى بن عمر الثقفي، إمام في القراءة والنحو. عالم بالعربية، وقراءته مشهورة، أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، صنَّف في النحو الإكمال والجامع ولم تصل إليها توفي سنة 149هـ.، عبد الواحد بن علي اللغويّ الحلبيّ، **مراتب النحويين**، مصدر سابق، ص43.

4 هو أبو عمرو بن العلاء بن عمَّار بن العُرْيان، واختلف في اسمه فقيل: زَبَّان وقيل: رَبَّان، وهو من مازن بن مالك بن عمرو بن تيم، أحد القرَّاء السبعة، أخذ النحو عمَّن أخذ عنهم ابن الحضرمي، وهو عالمٌ ثقة بالنحو واللغة. توفي سنة 154هـ.، عبد الواحد بن علي اللغويّ الحلبيّ، **مراتب النحويين**، مصدر سابق، ص33،

5 أبي سعيد السيرافي، **أخبار النحويين البصريين**، مصدر سابق، ص25.

6 أبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي، **مراتب النحويين**، مصدر سابق، ص31.

أما استصحاب الأصل فقد ظهر ضمن أصول النحو وهو متأخرا أيضا حيث اعتمد عليه النحاة أصحاب كتب النحو والمؤلفات في كتبهم بين أصول النحو.

ويُعَدُّ الخليل بن أحمد الفراهيدي[1] رائد التطبيق القياسي في الأحكام النحوية، وفي تقرير القواعد، حتى عُدَّ الغاية في استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه.[2]

ومن بين الأدلة كذلك الأدلة غير الغالبة، وهي الأدلة الفرعية أو ما يسمى بأصول النحو الفرعية مثل الاستحسان والاستدلال بالأولى والاستدلال بالعلة وغير ذلك كثير وقد ظهرت أيضا متأخرة عن السماع والقياس والإجماع.

وقد اتضح مما سبق أن النحو نشأ مبكرا جدا لأسباب سبق إيضاحها أما أصول النحو فقد كان متأخرا قليلا عن نشأة النحو لأن النحاة الأوائل واضعي النحو لم يكونوا بحاجة إلى الاستدلال لكلامهم فقد كانت الفطرة دليل حكمهم النحوي واللغوي، ولم تدع الحاجة إلى إثبات الدليل، وعندما بدأت الحاجة لإثبات الدليل نشأت أصول النحو عند النحاة مستمدين قواعدهم وأحكامهم من هذه الأصول ابتداء بالسماع بمصادره المعروفة وسيأتي الحديث عنها، ثم القياس على تلك المصادر المسموعة عن العرب وأمثالها، وتطور أصول النحو حتى أصبح إجماع النحاة دليل قوي لدى المتأخرين فلا يخالفهم إلا بدليل.

المصادر :

1. احمد بن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة**، تحقيق: أحمد صقر، (دمشق: عيسى الحلبي، د.ط، د.ت)
2. عبد الله الخثران، **مراحل تطور الدرس النحوي**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1993/1413م)
3. محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، (القاهرة: دار الكتب العلمية، ط1، 2001م)

[1] أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، يُعَدُّ الغاية في النحو واللغة، أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء، وأخذ عنه سيبويه، أملى كتابه العين على الليث بن المظفَّر، وهو أول من استخرج علم العروض، وأول من حصر أشعار العرب، كان زاهداً، توفي سنة 160هـ.، عبدالواحد الحلبي، **مراتب النحويين**، مصدر سابق، ص54 وما بعدها.

[2] أبي سعيد السيرافي، **أخبار النحويين البصريين**، مصدر سابق، ص38.

4. المستشرق الألماني بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، (مصر: دار المعارف، د.ط، د.ت)
5. أحمد امين، **ضحى الإسلام**، (د.م: د.ن، ط7، 1371هـ/ 1952م)
6. عبد القادر بن عمر البغدادي، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، (د.م: مكتبة الخانجي، ط4، 1997م)
7. علي بن تقي الدين الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، طبعه وفسر غريبه الشيخ بكري حياتي، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوت السقا، (حلب: مكتبة التراث الإسلامي، ط1، 1397هـ/1977م)
8. أبي القاسم الزجاجي، **الإيضاح في علل النحو**، تحقيق: مازن مبارك، (د.م: دار النفائس، د.ط، د.ت)
9. عبده الراجحي، **النحو العربي والدرس الحديث**، (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، د.ت)
10. أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.م: دار المعارف، ط2، د.ت)
11. أبي سعيد السيرافي، **أخبار النحويين البصريين**، تحقيق د محمد إبراهيم البنا (د.م: دار الاعتصام، ط1، 1405هـ)
12. طاهر سليمان حمودة، **جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي**، (بيروت: لمكتب الاسلامى، ط1، 1989م)
13. عبد الواحد بن علي اللغويّ الحلبيّ، **مراتب النحويين**، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ط1، د.ت)